

المحاضرة الرابعة في مادة السيرة النبوية

الجهر بالدعوة

قال ابن هشام : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من النساء و الرجال حتى فشى ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه . ثم قال الله له : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال له : (وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقل إني أنا النذير المبين) .

وحينئذ بدأ رسول الله ﷺ بتنفيذ أمر ربه، فاستجاب لقوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) بأن صعد على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر، يا بني عدى، حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فقال النبي ﷺ : " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبأ لك سائر اليوم .. ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب وتبّ) . ثم نزل الرسول ﷺ، فاستجاب لقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) بأن جمع من حوله جميع نويه وأهل قرابته وعشيرته فقال: يا بني كعب بن لؤي: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحماً سابغاً ببلاها " .

وكان رد الفعل من قريش أمام جهره بالدعوة، أن أدبروا عنه وتتكروا لدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم، وحينئذ نبههم الرسول ﷺ إلى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية

الاتباع و التقليد، واستعمال العقل و المنطق، وأوضح لهم أن آلهتهم التي يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئاً، وأن توارث آباءهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذراً في اتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد، كما قال عز وجل في حقهم : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) !؟
 فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، وجرّ اعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام بأنها تقاليد آباءهم وأجدادهم، إلى وصف آباءهم بعدم العقل، أعظموا الأمر وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وإلا عمه أبا طالب الذي حذب عليه ومنعه وقام دونه .

الإيذاء

ثم إن قريشاً اشتدت في معاداتها لرسول الله ﷺ و أصحابه ، أما رسول الله ﷺ فقد لاقى من إيذائهم أنواعاً كثيرة ،من ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ وقال : أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ .ومنه ما روى عبد الله بن عمر قال : بينا النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور فقفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة رضي الله عنها فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك . ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزاء و الغمز و اللمز كلما مشى بينهم أو مر بهم في طرقاتهم أو نواديهم .

ومنه ما رواه الطبري وابن اسحاق أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب فنثرها على رأسه وهو يسير في بعض سكك مكة، وعاد إلى بيته و التراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب و هي تبكي ورسول الله يقول لها : " يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك " .

وأما أصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئاً، ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذي لاقاه كل منهم، ولكننا ننقل هنا ما رواه الإمام البخاري عن خباب ابن الأثرث أنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردةً وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله : ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله .